

الرواية النسوية الجزائرية تحت المجهر، اشتغال الأنساق الثقافية المضمرة في "رواية مدن المرجان" لزهرة كشاوي

The Algerian feminist novel: the works of the hidden cultural patterns in the novel "Mudun al Mardjan" of Zahra Kachaoui.

ريمت عميروش*

مخبر البحث في الدراسات الأدبية
واللغوية والتعليمية والترجمة، جامعة
محمد الصديق بن يحيى جيجل (الجزائر)
rima.amirouche@univ-jijel.dz

تاريخ النشر: 2025/12/26

تاريخ القبول: 2025/09/23

تاريخ الاستلام: 2025/06/23

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة والمبطنة في الرواية الجزائرية النسوية، من خلال استنطاق خطاباتها الأدبية وقراءتها قراءات جديدة تتلمس حمولاتها التي ارتبطت بسلوكات المجتمعات وأفكارها وغيرها من المضامين الثقافية في قلبها السردية، مع توليفة للعناصر الفكرية التي تشخص الوجود والحياة بمختلف أشكال الثقافة، وقد اختارت الدراسة رواية "مدن المرجان" لزهرة كشاوي مُدَوَّنةً، وهي الرواية الحبلى بالرموز الإبداعية، لتسلط الضوء على كيفية توظيفها لعناصر سردية تتداخل فيها السياسة، والتاريخ، والواقع، والمجتمع، لتقدم نقدا عميقا للظروف السائدة آنذاك، تطرقت الدراسة أيضا إلى الرموز الإبداعية التي تميز الرواية، وكيف تعكس الرواية صراعات الهوية، والسلطة، والإنخيار الاجتماعي؛ مما يجعلها قراءة فكرية غنية بمضامين ثقافية متخفية ومتعددة الطبقات.

الكلمات المفتاحية: التمثيلات الثقافية - النسق المضمر - الرواية الجزائرية النسوية - مدن المرجان - زهرة كشاوي.

Abstract:

This paper aims at revealing the cultural patterns hidden in the Algerian feminist novel through reading its literary discourses and giving new readings linked to the societies' behaviors, thoughts, and cultural contents in a narrative form. The study focuses on the novel "Mudun al Mardjan" of Zahra Kachaoui, which is full of creative symbols. It sheds light on the use of the narrative elements that cover politics, history, reality, and society to provide a deep criticism of the then circumstances. In addition, the study tackles the creative symbols that characterize the novel and focuses on how the novel reflects the struggles of identity,

authority, and social decline; what provides an intellectual reading full of different multilayered cultural contents.

Keywords: cultural manifestations; hidden pattern; Algerian feminist novel; Mudun al Mardjan; Zahra Kachaoui.

1. مقدمة:

في فترة كانت فيها المسافات تتقاطع وتنوع فيها كل من الثقافات و المعتقدات ظهرت الرواية النسائية الجزائرية، حيث سعت الكاتبات الجزائريات إلى التعبير عن تجاربهن وآلامهن وآمالهن في مجتمع يغلب عليه الطابع والذكوري فما كان للذات الإبداعية الأنثوية إلا السعي لإثبات وإظهار القدرات الإبداعية التي تكتننها لتكون مكافئة للذات الإبداعية الرجالية... ، وبهذا السعي للإثبات لم يكن مجرد الوصول إلى حالة من إظهار القدرات الإبداعية بقدر ما أصبح غذاء للفكر الأنثوي وطموحا للمرأة الجزائرية التي خطت طريقا يمكن من خلاله استيعاب ذاتها الأنثوية ، وكذا رغبة في إثبات للقيمة التي تحملها الأعمال الفنية التي تنجزها المرأة الكاتبة في المجتمع، وهو ما استوقفنا في مختلف المنتجات الروائية السردية بما استحدثته من مناهج ومقاربات للمرأة العربية عامة والجزائرية خاصة...، في الكتابة التي استطاعت بحوثها المتميزة أن تحدد موقعها في خارطة الإبداع الإنساني وتخلق منه تحولا وانطلاقا نحو البحث عن هويتها المفقودة وفرض سلطتها على النص بخوضها غمار تجريب الذي خلق للمرأة المبدعة انتقلا نوعيا من السمات والخصوصيات المتفردة والمتغيرة.

من هذا التحول فتح الأبواب للروائيات الجزائريات المعاصرات من أجل استشراف آفاق روائية نسوية « تجسد هموم الأنثى وتحدد معالم اشتغالها الفردية والجماعية وتكشف في الوقت ذاته عن أسئلتها المرتحنة بالواقع والمحيط والعالم والأشياء فترسم لنا رؤيتها المركزية وتعني تمثلاتها الذاتية والموضوعية الخاصة والعامة الظاهرة والمضمرة وما تحيط بها من قيم فنية وأبعاد جمالية على مستوى العملية التخيلية ومساراتها المتعددة»¹.

وعليه فإن هذه الدراسة أثارت فينا بعض الأسئلة والإشكاليات التي سنحاول الإجابة عنها، من خلال تفكيك مضمرات النص الروائي وفق الاعتماد على آليات النقد الثقافي أهمها:

- كيف تعكس رواية "مدن المرجان" التداخل بين الأنساق الثقافية السياسية والاجتماعية والنفسية في المجتمع؟
- ما هي التحولات التي جسدها السرد الجزائري النسوي من ناحية الإبداع والثقافة؟
- كيف تستخدم الرواية الرمزية السردية للتعبير عن الصراعات الثقافية والاجتماعية؟
- إلى أي مدى استطاعت التمثيلات الثقافية في الرواية النسوية الجزائرية تشكيل رؤى جديدة للواقع؟

2. النقد الثقافي وما بعد الحداثة :

لقد جاء النقد الثقافي كرد فعل على الضغوطات والتحديات التي مارستها البنيوية (الشكلانية أو النقد الشكلاني) ما بين الثلاثينات والستينات من القرن العشرين، بعد ما حرص على « قراءة النص من الداخل والتقييد بحدوده الشكلية ، أي عدم الدخول في أية مسائل تتصل بالثقافة خارج النص عموما »².

لذلك جاءت مرحلة ما بعد البنيوية تنقده، ذلك لأن النص لا يمنح مكوناته كلها في الطرح البنيوي، فيصير بذلك الأدب خادعا ولا يلامس حقيقته وأبعاده، في النقد البنيوي كان النص يُعتبر عالماً مغلقاً على ذاته، وكان التحليل النقدي يستهدف البنية اللغوية والأسلوبية، والرموز الداخلية التي يتشكل منها النص فالفكرة كانت أن النص يمتلك معنى خاصاً داخلياً يمكن الوصول إليه من خلال تفكيك مكوناته الشكلية، تم استبعاد أي نظر إلى السياقات التاريخية، الثقافية، النفسية أو الأيديولوجية التي قد تساهم في بناء النص وتشكيل معانيه هذا الطرح أدى إلى تجاهل الأدب كمنتج ثقافي يتأثر بالظروف المحيطة به.

دامت هيمنة البنيوية على الساحة النقدية لعقود ، ومع ذلك، جاءت مرحلة "ما بعد البنيوية" كرد فعل على هذا التوجه النقدي الضيق فإن نقاد ما بعد البنيوية، مثل جاك دريدا وميشيل فوكو، أشاروا إلى أن هذا التركيز الشكلي لا يمكن أن يلتقط كامل مكونات النص الأدبي، لأن النص ليس كياناً مغلقاً، بل هو جزء من سياق ثقافي وسياسي أوسع لذلك الأدب قد يبدو "خادعاً" إذا تم تحليله بشكل بنيوي فقط، لأنه يحجب أبعاده الحقيقية التي تتصل بالثقافة والسلطة والمعرفة.

مرحلة ما بعد البنيوية تنبعت إلى أن الأدب ليس مجرد بنية لغوية، بل هو حقل مليء بالمعاني والرموز التي تتفاعل مع أنساق ثقافية أكبر، النصوص ليست منعزلة عن الثقافة بل هي نتاج لها وتساهم في إعادة تشكيلها، من هنا جاء النقد الثقافي ليعترف بأن الأدب ليس فقط حاملاً للأفكار الجمالية أو البنية الفنية، بل هو مرآة تعكس العلاقات الاجتماعية والسلطوية، الأدب في هذا السياق يعكس الأنساق الثقافية التي تحكم المجتمع، ويعمل أحياناً على إعادة إنتاجها أو مقاومتها.

في ذلك الوقت كان الطرح السياسي الثقافي مفتوحاً يدافع «عن نظامه ومفهومه وحقه في الوجود حتى يتم فتح النصوص على الواقع وعلى التاريخ والظروف، وحتى على العناصر التي لم يكن يترجى للنص أن يفتحها، فلم تدم هيمنة البنيوية وجاء على أنقاضها الطرح ما بعد البنيوي الذي ولد النقد الثقافي كونه الثقافة تتجسد من أنساق لا حصر لها إيديولوجيا وتاريخيا، وأمكنة وأزمنة وأشخاص وحضارات وسياسة، وكل ما أنتجه الفكر البشري بصفه عامة»³ النقد الثقافي إذن انبثق من الحاجة إلى تجاوز هذا التركيز الشكلي إلى مضمون النص وعلاقته بالعالم الخارجي وتمحور حول تحليل الأدب كجزء من نسيج ثقافي، وأكد على أهمية فهم الأدب في سياق تأثيره المتبادل مع السياسة المجتمع والإقتصاد، من هذا المنظور النص الأدبي لم يعد خاضعاً لتحليل مجرد لأشكاله اللغوية والبنيوية، بل صار يُنظر إليه كمنتج ثقافي يتفاعل مع الأيديولوجيات والأنظمة الاجتماعية التي تسود في زمانه ليرتبط بذلك النقد الثقافي بمصطلح ما بعد الحداثة، التي هي الأخرى رفضت الزيف ونادت إلى التدمير ولا ترابط ولا تركز والإنقسام، وكأنها تتحدث عن الأصل قبل أن تغزو الأوهام الإنسانية التي في نظرها قد لاقت فشلاً درعاً⁴ لتقاطع منادات كل من ما بعد الحداثة والنقد الثقافي في الأمر نفسه، الذي يقوم على التكسير والتشيم وخلخلة القواعد من أجل إعادة بناء آخر يكشف الأنساق المسيرة للإنتاج الإنساني وأدبه وفنه

«لقد ارتبطت ما بعد الحداثة اليوم بالعملة التي ترى في العالم ثقافة واحدة وترى العالم قرية صغيرة، لقد أطلق هذا التوجه الفلسفة لعيان للفكر وللحصر والمعالجة انقضى وحطم كل القيود التي كانت مفروضة على الناقد وفتحت المجال لإعادة ترتيب الأشياء، ورفضت التقديس عن الأفكار والكيانات»⁵ في هذا السياق، يمكن القول إن الأدب قد يبدو

"خادعاً" إذا ما تم تحليله من خلال المنهج البنيوي فقط، لأنه يخفي تفاعلاته مع الواقع الاجتماعي والثقافي، الأدب لا يُفهم فهماً كاملاً إلا إذا نظرنا إليه كنص ثقافي يتفاعل مع الخطابات الكبرى التي تشكل المجتمع، مثل السلطة، الهوية، الطبقة والإستعمار، النصوص الأدبية لا تحمل "الحقيقة" في داخلها فقط، بل تتشكل عبر تفاعلها مع هذه العوامل الخارجية، ولذلك يحتاج النقد الأدبي إلى تجاوز حدود الشكلائية للوصول إلى أبعاد النص الأعمق.

في النهاية جاء النقد الثقافي كجزء من حركة أوسع نحو إعادة النظر في الأساليب النقدية التقليدية التي كانت تهمل السياقات الأوسع للنصوص الأدبية، وأصبح من الضروري استكشاف كيف تتفاعل النصوص مع الأنساق الثقافية والاجتماعية التي تحيط بها.

3. الأنساق الثقافية والمضمرة :

لطالما كانت دراسة النصوص الأدبية تركز على العنصر الجمالي والشكل الخارجي اللذان يمثلان أنساقاً ظاهرة وقد طالت مدة هذه الدراسة صرحاً من الزمن مما استدعى الدارسين والنقاد إلى خلق نوع جديد من الدراسة يتجاوزها إلى دراسة المضمرة والمخفيات من الأنساق في الأعمال الأدبية في نقلة نوعية للدراسات على مستوى الخطاب النقدي المعاصر، وهذا ما دفع بالغدامي إلى طرح تساؤله إن كان في الأدبية شيء غير الأدبية « لقد شغلت أدبية الأدب حيزاً عريضاً في البحث النقدي على مدى قرون وما تزال تفعل، غير أن جهوداً خارقة جاءت لتكشف الأشياء أخرى من وراء أو من تحت أدبية الأدب»⁶، إن "أدبية الأدب" - أي العناصر الفنية والأسلوبية التي تميز النصوص الأدبية - قد كانت محور البحث والدراسة النقدية عبر العصور، هذا المفهوم يشمل جوانب مثل الأسلوب، اللغة، الشكل، والبنية التي تجعل من النص عملاً أدبياً يُقدّر لذاته وليس فقط لأجل محتواه، وأن هناك جهوداً نقدية جديدة "خارقة" ظهرت لتجاوز هذا التركيز التقليدي على "أدبية الأدب"، هذه الجهود تستهدف كشف أوجه أخرى للنصوص الأدبية قد تكون مستترة أو غير مرئية في البداية أو حتى زئبقية لا يمكن القبض عليها من القراءة الأولى، ويمكن أن تكون هذه الأبعاد أبعاداً الأيديولوجية، السياسية، الاجتماعية، والنفسية... وتؤثر على النص أو التي يؤثر بها النص على القارئ أو المجتمع، على سبيل المثال النقد ما بعد البنيوي وما بعد الكولونيالي يسعى إلى تفكيك النصوص الأدبية لتحديد البنى الخفية التي تحكمها، مثل السلطة، الهوية، والهيمنة... من هذا المنطلق يتم النظر إلى النص الأدبي ليس فقط كنص قائم بذاته، بل كجزء من منظومة ثقافية وسياسية متشعبة معقدة، وبالتالي هناك تطور في النقد الأدبي يهدف إلى كشف ما هو "وراء" أو "تحت" الأدبية، أي المعاني والبنى العميقة التي قد تكون خفية أو مضمرة تحت الطبقة السطحية المتمثلة في الجوانب الجمالية للنص، تأتي الأنساق المضمرة دائماً خفية وتعتبر البلاغة بجمالياتها أهم الأقنعة التي يعبر منها « تمر الأنساق آمنة مطمئنة تحت المظلة الورقية، وتعتبر الحقول والأزمدة كفاعلة مؤثر»⁷.

إن الأنساق الثقافية مرتبطة بلا وعي العقل البشري متغلغلة في ثقافته وذهنه، وتظل تمارس فاعليتها على نحو ما اتجه المبدع أثناء كتابته، فلا يشعر بهيمتها عليه، فهي تشكل على حين غفلة منه في ذاته ولا وعيه «يمتلك مرونة التحولات ويستجيب لمقتضى المتغيرات دون أن يتلاشى جوهره»⁸ الأنساق الثقافية لا تعمل على المستوى الواعي فقط، بل تنفذ إلى عمق العقل البشري، حيث يتمثل دور اللاوعي هنا في كونه مساحة غير مدركة ولكنها فاعلة، تُعيد إنتاج وتكرار الأنماط الثقافية التي تربي عليها الفرد.

لا يمكن للمبدع أثناء كتابته الانفصال الكامل عن هذه الأنساق، لأنها متجذرة في هويته وثقافته، حتى وإن اعتقد أنه يسعى إلى كسر القواعد الثقافية وهو يكتب بحرية مطلقة، فهو في الغالب لا يدرك أن الأنساق التي تشكلت في داخله منذ الطفولة تظل تعمل وتؤثر على ما يكتبه، هنا نستنتج أن المبدع لا يشعر بوضوح بسيطرة الأنساق الثقافية عليه؛ بل تعمل هذه الأنساق بهدوء وسلاسة على تشكيل أفكاره وأسلوب كتابته دون أن يدرك تأثيرها المباشر، هذا يعكس فكرة "الهيمنة الخفية" للثقافة على المبدع، حيث أن القواعد الثقافية والقيم الاجتماعية لا تُفرض بشكل صارم أو قسري، بل تكون مدمجة في طريقة التفكير والعالم الذي يعيشه الفرد، بهذا المعنى تصير الثقافة بمثابة البنية التحتية للعقل واللاوعي، وهي تتحكم في توجهات المبدع بشكل غير مباشر.

إن التغيرات والتحويلات التي يتميز بها النسق الثقافي المضمّر في الأعمال الأدبية تتطلب نوعاً خاصاً من القراءة التي تسمي القراءة الثقافية، لإدراك الأنساق الثقافية الظاهرة منها والمضمّر «إذاً أن الإهتمام بدراسة الأنساق اللغوية داخل الثقافة يمنح الثقافة معناها الجوهري، لا المعنى الظاهري المزيف ولأن النسق اللغوي داخل الثقافة لا يمكن الإستغناء عنه لأنه إيديولوجي، ولأنه وحده الذي يؤسس للإتصال جمعي ويؤطر لنظام الخطاب داخل الثقافة فوحدها إذن المقاربة اللغوية الثقافية تسمح بفهم أعمق الأنساق اللغوية بمهاميتها المعلنة بإيديولوجيتها الحقيقية المضمرة»⁹، الأنساق اللغوية تشير إلى النظم والقواعد التي تحكم استخدام اللغة داخل مجتمع ما، هذه الأنساق ليست مجرد أدوات للتعبير الفردي، بل هي بني ثقافية وإيديولوجية تنشأ من تفاعل الناس في بيئتهم الاجتماعية والسياسية.

عند دراسة الأنساق اللغوية نكتشف كيف يتم تشكيل المعاني وتوزيعها في المجتمع، وكيف تعكس اللغة بنية التفكير الجماعي، بعبارة أخرى اللغة تشكل طريقة فهمنا للعالم وتوجيه سلوكياتنا، لدى فالإهتمام بدراسة الأنساق اللغوية داخل الثقافة يُمكننا من فهم المعنى الجوهري للثقافة ذاتها، أي المعنى العميق والمضمّر الذي يشكل حقيقة الثقافة وإيديولوجيتها، على نقيض المعنى الظاهري هو السطح الذي قد يكون مزيفاً أو مضللاً، حيث يُظهر الأشياء على غير حقيقتها إذا لم ننظر إلى الأنساق اللغوية بشكل نقدي وثقافي، قد نفهم الثقافة بناءً على هذا المعنى السطحي، الذي قد يكون مُحرفاً عن جوهره الحقيقي، وهو ما جعلنا نتعامل مع خطاب الرواية بشكل يسعى لطرح أسئلة أكثر من سعيه تقرير حقائق ومعطيات ثابتة ترخر بها اللغة المباشرة لأن «أتماط الإتصال البشري كافة تضمّر دلالة نسقية تؤثر على مستويات الإستقبال الإنساني في الطريقة التي بها نفهم والطريقة التي بها نفسر، وهو ما يجعل القراءة الثقافية تسلم بالمعطيات المباشرة في سطح الخطاب وتبحث عن المضمّر المتخفي بين ثناياه»¹⁰

المقاربة اللغوية الثقافية تعني دراسة اللغة ليس فقط كوسيلة للتواصل، بل كجزء لا يتجزأ من الثقافة والإيديولوجيا، هذه المقاربة تسمح بفهم أعمق للأنساق اللغوية لأنها تضع في الإعتبار الأبعاد الثقافية والإيديولوجية الكامنة وراء استخدام اللغة، فاللغة وفقاً لهذه المقاربة، ليست مجرد وسيلة لتمرير المعلومات، بل هي نظام معقد يحمل في طياته أفكاراً، قيماً، ومعايير اجتماعية وسياسية تشكل كيفية فهمنا للعالم و الأنساق الثقافية هي بمثابة الخيوط التي تحكم حركات المبدع من خلف الستار، قد يبدو المبدع حراً في اختياراته الفنية والفكرية، ولكن الأنساق الثقافية تظل تعمل على نحو غير مرئي، مؤثرة على شكل الإبداع ومضمونه، لهذا يصبح وعي المبدع بتلك الأنساق أحد التحديات الأساسية إذا كان يسعى حقاً للإبتكار أو لتفكيك الأسس الثقافية التي ورثها عن بيئته ومجتمعه.

المضمر النصي لا يعبر فقط عن معارضة سياسية أو اجتماعية، بل يتعامل أيضاً مع المكبوتات الفردية أو الجماعية في الثقافات التي تفرض قيوداً صارمة على التعبير العلني عن الرغبات أو الإحتياجات أو حتى الآراء، يمكن أن تصبح النصوص الفنية أو الأدبية مساحة لاستكشاف تلك المكبوتات، وبهذا فالكاتب يجد في المضمر وسيلة للإفصاح عن مشاعر ومواقف قد لا تكون مقبولة في العلن، ويترك للقارئ المجال لإلتقاط تلك الرسائل وفهمها.

هذه اللعبة تتطلب درجة عالية من الذكاء الفني، حيث يتم وضع الأفكار المعارضة بطريقة لا تكون مباشرة أو واضحة للقارئ السطحي، بل تحتاج إلى تحليل وتأويل عميق للكشف عن الرسائل المخفية. بفضل هذه التقنية، تستطيع النصوص أن تتجاوز الحدود الصارمة المفروضة عليها، وأن تتحول إلى أدوات للتحرر في مواجهة السلطة القمعية أو النسق الاجتماعي الذي يسعى إلى فرض الهيمنة.

في هذه الحالة يكون هناك نسق مهيمنا - قد يكون سياسياً، اجتماعياً، أو ثقافياً - يحاول فرض رؤيته للعالم على المجتمع. هذا النسق يحدد المعايير والقيم المقبولة ويستبعد أو يجمع كل ما يخرج عن هذا الإطار، فالنصوص التي تعارض النسق المهيمن لا تسعى دائماً إلى المواجهة المباشرة معه، بل تعتمد على استراتيجيات المقاومة الخفية للمضمر النصي في هذه الحالة يصبح سلاحاً خفياً يستخدمه الكاتب للتعبير عن رفضه أو مقاومته.

يمكن النظر إلى هذه الحالة الثقافية كنوع من التكتيك الحربي الثقافي، حيث يستغل المبدعون الحدود التي يفرضها النظام المهيمن ويقلبونها لصالحهم. النصوص المعارضة هنا قد تبدو على السطح مطابقة للنسق الثقافي السائد، لكنها تحمل في طياتها بذور التمرد والتحرر، ما يجعلها وسيلة فاعلة لمواجهة الهيمنة الثقافية،

أما ما تعلق بالرواية الجزائرية، فإن تجربة الكاتبات في السرد قد أسفرت عن أبعاد متعددة تشهد على تسارع أنماط التفكير في المجتمع، من خلال قراءتنا المتمعة لرواية "مدن المرجان" للكاتبة زهرة كشاوي، يلاحظ أن هناك العديد من المظاهر الثقافية والأنساق التي كانت بمثابة مفاتيح لفهم أعمق لوعي الكاتبة، هذه الأنماط الثقافية تكشف عن تمظهرات معقدة، تتيح لنا الغوص في عمق النص وتفكيك شفراته لمعرفة مكوناته الثقافية والنقدية، حاورت فيها الروائية الزوايا المضلمة في المجتمع الجزائري في فترة عرفت الإهتزاز والركود في الآن نفسه

4. الأنساق المضمرة في رواية مدن المرجان:

تختزل الرواية في طياتها مضامين العصر ورؤية الكاتبات لها من خلال أنساق مضمرة يتسلل عبرها الواقع بشكل في متقن، ما يسمح للعمل الروائي بالنمو والتشكل، هذه الإنتاجات الأدبية تعمل على توجيه القارئ باستخدام آليات تضمن انتظامه ضمن إطار متسق، يتراوح من كثافة خفيفة تسمح له بالتفاعل مع النص بأقصى درجة من التماسك الظاهري، دون أن يتعرض لفراغات قد تثير التششت أو تعيق تأملاته العميقة في النص.

لذا تزخر رواية مدن المرجان بالعديد من الأنساق الثقافية المضمرة والتي أرسلتها الكاتبة زهرة كشاوي بوعي وبغير وعي منها، التي ظهرت بتمشهد الأحداث

4-1 النسق المضمر السياسي:

في الخطابات الغربية، تتجلى النزعة الإستعمارية بشكل واضح من خلال المخططات الإستعمارية التي كان الأوروبيون يروجون لها إذ كانت الجزائر، على سبيل المثال، هدفاً بارزاً لنابليون، حيث كانت تُعتبر جزءاً من استراتيجيات التوسع

الأوروبي عبر البحر الأبيض المتوسط. هذا التوجه الاستعماري لم يكن مجرد مسعى للهيمنة العسكرية، بل كان مدعوماً بنظرة ثقافية متعالية ترى أن أوروبا هي الحاملة للمعرفة والتقدم، وأن الشرق الإسلامي، بما في ذلك الجزائر، هو الفضاء المتخلف الذي يحتاج إلى "الإنقاذ" عبر "نقل المعارف"، يقول فيكتور: «كيف ننشر الإيمان بالحرب... حلمت بنقل حضارتنا ومبادئ الثورة الفرنسية العظيمة»¹¹ هذه الفكرة تتناغم مع النسق المضمّر السياسي الذي يروج لفكرة التفوق الثقافي والسياسي للغرب، وتبرير الاحتلال كوسيلة لتحرير الشعوب المستعمرة من الجهل والتخلف، ما كان يُقدّم على أنه رسالة حضارية كان في جوهره شكلاً من أشكال الإستعداد للإستعمار، وهو ما بدا واضحاً في الحملات الصليبية والفشل الذي لاقته، إلا أن النزعة الإستعمارية استمرت بشكل آخر عبر تبني سياسات أكثر خفاءً ودهاءاً

يُعد النسق السياسي أحد الركائز الأساسية في بناء المجتمع، إذ يمثل منظومة اجتماعية تؤدي دوراً محورياً في تحقيق الضبط الاجتماعي من خلال تنظيم العلاقات بين الأفراد وتحديد حقوقهم وواجباتهم تجاه السلطة، كما أن النسق السياسي لا يقتصر على المجتمعات الحديثة فقط، بل كان حاضراً أيضاً في المجتمعات التقليدية القديمة، كونه أداة لضمان الاستقرار والتماسك الاجتماعي وتكمن وظيفته الرئيسية في وضع القوانين والآليات التي تضبط سلوك الأفراد، وتوضح ما لهم وما عليهم، بما يضمن التوازن بين الحرية والنظام، كما يتولى هذا النسق مسؤولية حماية أفراد المجتمع وممتلكاتهم من التهديدات الداخلية، كالاغترافات والاعتداءات، والخارجية كالغزو أو التدخلات الأجنبية، وبهذا فإن النسق السياسي يُعد عنصراً ضرورياً لضمان الأمن الاجتماعي وتنظيم الحياة العامة داخل كل مجتمع وعليه ف إن « النسق السياسي من النظم الاجتماعية التي توجد في كل المجتمعات التقليدية القديمة والحديثة، كونه يتضمن عملية الضبط الاجتماعي، لأن تحقيق الضبط هو وظيفة النسق السياسي، وتتحدد بموجبه علاقات أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، إذ توضح الحقوق، والواجبات اتجاه السلطة، فضلاً عن وظيفته في الدفاع عن أفراد المجتمع، وحقوقهم، وملكيّاتهم ضد المعتدين سواء أكان من أبناء مجتمعهم، أم من أبناء المجتمعات الأخرى»¹²

وبهذا يتجه هذا الخطاب التحليلي إلى تفكيك الخطابات الإستعمارية وإعادة التفكير بتجاوز الأطر الإنغلاقية التي حاصرت النص الأدبي، وبالتالي انفرجت حدوده النفسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية وبهذا فإن «النصوص ما بعد الكولونيالية تتبنى هدفاً سياسياً أكثر تحديداً ألا وهو الخلخلة المستمرة للسلطة السياسية والثقافية للإمبريالية»¹³، وبناءً على ذلك، يساهم هذا الأدب في تقديم رؤية جديدة تُظهر تأثيرات الإستعمار على الشعوب المستضعفة، متمثلة في حالات المعاناة والبؤس والشقاء، بالإضافة إلى محاولات خلق إنسان جديد «شكل هذا الخطاب الجديد خطاباً مضاداً لخطاب المركز ليتشكل ما يعرف بصراع الخطابات أو صراع الهامش والمركز في الخطابات النقدية فالتّصّ سلاح إيديولوجي في مجتمعات سلطوية فكرية سياسية وكل فريق يرى نفسه في النص ويسقط عليه آمانياته ويرى فيه دفاعاً عن مصالحه وهجوماً على خصومه، وهكذا يكون النص خادماً لفئة سياسية واجتماعية معينة تملك وسائل التساقط والإستبداد ما يكفي لهزيمة الآخر»¹⁴، بعد أن تحول الخطاب إلى كتلة مليئة بالأساليب والأفكار المشحونة، أصبح محملاً بالأنساق المضمرّة التي تستطيع أن تخلق مجموعة من الحلول للتعامل مع الحملات الثقافية التي تراكمت في الفكر الإنساني.

إن هذه الرؤية الإستعمارية، التي تروج لها القوى الإستعمارية، تؤسس لنظام سياسي ثقافي مضمّر يعمل على تهميش الهويات المحلية وتقليل من شأنها لصالح "التقدم" الأوروبي المزعوم، وفي موضع آخر يبرز النسق الثقافي السياسي للمستعمر لكن بطريقة خبيثة متلاعبة بالحقيقة تقول الروائية «لقد قدمت لهم من أمة صديقة لأخلصهم مثلما قدم المسيح

لتخليصنا، أنا أحترم دينهم وتقاليدهم وأملأهم لكن اود لو أحطم الأغلال الموجودة في أيديهم وعقولهم، لا أحد بإمكانه فعل ذلك سوى جيشنا العثمانيون يهبونكم ويستعبدونكم تحت لوائهم»¹⁵ لتعكس بشكل واضح النسق المضمّر السياسي الذي يُستخدم لتبرير الهيمنة الإستعمارية تحت غطاء "التخليص" و"التحرير"، فالنص يظهر محاولة لتقديم الإستعمار الأوروبي كعملية إنقاذ من "الأغلال" التي تقيد الشعوب المستعمرة، وهو ما يعكس النظرة الإستعمارية التي ترى في نفسها القوة المنقذة التي تملك الحق في فرض سلطتها على الشعوب "المتخلفة" تحت ذريعة تحريرهم من قوى أخرى، مثل العثمانيين في هذه الحالة.

وهذا النسق السياسي يساهم في تأطير الواقع الإستعماري عبر إظهار التوسع الأوروبي كواجب حضاري، ما يعمق الهيمنة السياسية والثقافية على الشعوب المستعمرة، بالتالي، يعكس هذا الخطاب النسق الإستعماري الذي يستند إلى فكرة مركزية الغرب والتفوق الثقافي والسياسي، بينما ينظر إلى الشعوب الأخرى ككائنات بحاجة إلى "الإنقاذ" من خلال السيطرة، وهو ما يعزز من مبررات الإستعمار ويحاول إضفاء مشروعية عليه.

4-2 النسق المضمّر الاجتماعي:

تعد الرواية نوعاً أدبياً يعبر عن المجتمع الذي أُنتجت فيه وتعتبر مرآة تعكس حياة شعبها، فهي لا محالة تتضمن أنساقاً اجتماعية متعددة تعكس التناقضات والصراعات التي يشهدها المجتمع. هذه الأنساق تتيح للرواية فرصة للتفاعل مع التطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تؤثر على حياة الأفراد والمجتمعات ومن خلال هذا التفاعل، نجد أن الرواية قد أصبحت مفتوحة على العديد من العلوم الأخرى خاصة علم الاجتماع، وذلك لفهم أعمق للعلاقات بين الأفراد والمجتمع.

خاصة مع الأنثى، نظراً لتجذر النسق الذكوري في الثقافة وسلطته الطاغية، وما يترتب على ذلك من صعوبة مقاومته أو تغييره، فقد أفضى هذا النسق إلى إنتاج ثنائية معقدة بين الذكر والأنثى، تقوم على معارضة متعمدة في هذه الثنائية، تُفرض مركزية الرجل، مما يؤدي إلى تهميش المرأة وقمعها، حيث يتم تقديمها كظل تابع هامشي، يخدم تكريس مركزية الرجل ودوره المهيمن.

بالعودة إلى الإطار الزمني الذي تدور فيه الرواية، نجد أنها تصور حقبة يشهد فيها المجتمع هيمنة ذكورية صارخة تُحكم قبضتها على النساء، مسلوبة الإرادة والحرية في هذا السياق تُحتزل المرأة في دورها كوسيلة تُستخدم لتلبية رغبات الرجل، دون أي اعتبار لإنسانيتها أو إرادتها يظهر ذلك بوضوح في الرواية حيث يتم تصوير الأنثى على أنها لا تمتلك قيمة مستقلة بذاتها، بل تُقدّر فقط من حيث جسدها الذي يُعتبر وسيلة لإطفاء الشهوات.

المرأة في هذه البنية الثقافية الاجتماعية تُعامل كأداة رخيصة، يُمكن الحصول عليها مقابل المال مم أدى إلى جعلها شيئاً في الأيدي، وهو ما يظهر جلياً في قول فيكتور مونكا «طفقت باحثاً عن اللذة... وضعت يدي على خصرها... وهبتها بالأخرى صرة من النقود... ثم أطفأت جذوتي ارتحى جسدي وهويت ... كم أحب منح جسدي للنساء الجميلات لم أمنحه يوماً لنساء القالة كنت أزدريهن وما زلت أمقتهن»¹⁶ ما يعكس مفهوماً اجتماعياً مشحوناً بتناقضات تُبرز سيطرة الذكر وفحولته على حساب إنسانية المرأة وكرامتها، يعكس هذا المقطع اشتغال النسق الذكوري بوضوح من خلال تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة كعلاقة استغلالية أحادية الجانب، تُحتزل فيها المرأة إلى جسد يُباع ويُشترى لإشباع شهوات الرجل

واستخدام المال كوسيلة لامتلاك الجسد الأنثوي يُبرز غياب البُعد الإنساني والعاطفي في هذه العلاقة، مما يحيلها إلى معاملة تجارية باردة، علاوة على ذلك يظهر التمييز الطبقي والجغرافي في ازدراء الراوي لنساء "القالّة"، مما يُبرز التداخل بين الهيمنة الذكورية والتمييز الاجتماعي.

هذا التمييز يعكس كيف يُعيد النسق الذكوري إنتاج التفرقة الطبقيّة إلى جانب سيطرته على المرأة، كما أن تصوير الرجل لنفسه كمركز للرغبة والمتعة يؤكد مفهوم الفحولة، حيث تتحقق رجولته من خلال استحوذه على الجسد الأنثوي...، كانت إيزابيل أداة فرنسا في الجزائر، حيث شكّلت المهمة الموكلة إليها مصدر أهميتها ومكانتها، كونها امرأة مهمشة ومقهورة لم تجد سبيلاً لتحقيق التقدير إلا من خلال العمل السري لصالح نابليون، طامحةً في أن يُقلّدها أوسمة ويعترف بفضلها قضى فكتور وقتاً طويلاً لإقناعها بذلك حتى تستسلم لرغباته وتنفذ كل ما يطلبه منها، بعد وفاة والدها عاشت إيزابيل ظروفاً قاسية، تلاها وفاة زوجها، مما جعل حياتها تفقد هدفها ومعناه، باتت تعيش حالة من الموت المعنوي إلى أن وجدها فكتور، فأقنعها ونجح في تجنيدها لخدمة مصالحه «استدرجت إيزابيل أول الأمر إلى فراشي ثم جندتها وصنعت منها عينا من عيوننا»¹⁷ المقطع يقدم لنا نقداً مبطناً للنسق الثقافي الأبوي الذي يُفقد العلاقات الإنسانية معناها الحقيقي، ويجعلها إلى علاقات قائمة على السيطرة والاستغلال، وفي موضع آخر يقول: «كثيرات هن النساء اللواتي لعبن دوراً بطولياً من أجل الجمهورية تماماً كما ثمة فرنسيات لعبن دوراً مشيناً، تذكري حلمك أن تجعل نابليون يعجب بولائك ويقلدك وسام الشرف، وتذكري كان للنساء يد في تعيين الرجال قبل الثورة وبعدها... عليك أن تفكري في المجد الذي ستجلبه لك مهمتك إن أنت أحسنت القيام بها»¹⁸، يعكس هذا القول اشتغال النسق الاجتماعي في استغلال النساء بطرق مموهة تخدم القوى المهيمنة، ليمثل هذا الاستغلال في إقناع المرأة بربط قيمتها الذاتية وطموحاتها الشخصية بمهمة تُقدّم لها على أنها شرف ومصدر للمجد، بينما تكون في الواقع وسيلة لخدمة أهداف الرجال والمؤسسات المهيمنة.

يستخدم النسق الاجتماعي خطاباً إغوائياً يوظف قيم الولاء والطموح لتحفيز النساء على الانخراط في أدوار تُكرّس الهيمنة الذكورية.

في هذا السياق، تصبح المرأة أداة يُعاد إنتاجها اجتماعياً لتلبية حاجات النظام الأبوي، في حين تُهمّش إرادتها الذاتية، هذا الاستغلال يُبرز قدرة النسق الاجتماعي على التحكم في الطموحات الفردية، خاصة لدى النساء، وتحويلها إلى وسيلة لتحقيق مصالح لا تخدمهن بشكل مباشر.

الرواية تُقدم نقداً لاذعاً لهذا النسق الأبوي الذي يجعل من الجسد الأنثوي مطية يُمارس عليها الرجل فحولته، مستعرضاً بذلك البنى الثقافية والاجتماعية التي تُكرّس هذه النظرة وتُعيد إنتاجها.

4-3 النسق المضمّر النفسي:

يمثل النسق النفسي مجموعة الأنماط النفسية والسلوكية التي تؤثر في وعي الأفراد وتوجهاتهم تجاه أنفسهم والعالم المحيط. يتشكل هذا النسق من تفاعل العوامل الداخلية مثل الصراعات النفسية والتوترات مع العوامل الخارجية مثل التنشئة الاجتماعية والضغوطات الثقافية.

في الأدب والفن، يُستخدم النسق النفسي لتمثيل الصراعات الداخلية والتأثيرات الاجتماعية والتاريخية على الشخصية كما يعكس أيضاً حالات الإنقسام الداخلي للهوية عندما يضطر الأفراد للتكيف مع معايير ثقافية أو اجتماعية قد تكون بعيدة عن ذاتهم، وهو ما جسده "زهرة كشاوي" في الحالة التي تعيشها شخصية "فكتور"، الذي يعاني من ضياع الهوية

نتيجة لإضطرابه إلى تغيير اسمه وهويته من أجل خدمة الإمبراطورية الفرنسية، إن هذا الصراع النفسي يتمظهر بشكل رئيسي في تمزق داخلي بين الذات الأصلية التي كان يمتلكها و الهوية الجديدة التي تبناها لإرضاء لأجندة نابليون، الهوية في شخصية فيكتور، ليست ثابتة بل هي عملية متغيرة ومعقدة تتأثر بالعوامل السياسية والتاريخية التي يمر بها الفرد. يعكس صراع فكتور النفسي أزمة الهوية التي يعاني منها كثير من الأفراد في فترات التحولات الكبرى حيث يُجبرون على تقمص أدوار لا تعكس جوهرهم الداخلي، هذا التكيف مع الظروف المحيطية يؤدي إلى حالة من الضياع النفسي والتشظي الداخلي، مما يبرز التوترات بين الذات الحقيقية والأدوار المفروضة «مرت أشهر، تحت، ما عدت أعرف من أنا جيوفاني ميتشي أم ثيودوريك ألونزو؟ فيكتور دي أوغو أم لويس ديتريتش؟ جوانو تيساسترا أم سيمون الصغير»¹⁹ من خلال هذا التغير القسري، تتفجر لدى فكتور أسئلة عن هويته الحقيقية، مما يجعله يواجه توترات نفسية عميقة، ويكشف عن هوية مشتتة لا يجد لها صدى في العالم المحيط به، وهو شعور يحس به الأفراد مع ذاتهم وكأنهم في ورطة وحالة من الضياع وهو ما تجسد في موضع آخر من الرواية «يعطيهم رغبة في اعتزال الحياة العامة، ومجافاة الناس لشعور داخلي لديهم بأنهم غير مفهوم لدى الآخرين»²⁰

من جهة أخرى، يعكس النسق النفسي أحياناً حالة من الانفصال أو التشظي في الهوية عندما يواجه الأفراد ضغوطاً نفسية، ثقافية أو اجتماعية تدفعهم إلى التأقلم مع معايير قد تكون بعيدة عن جوهر شخصياتهم من هنا يكون النسق النفسي عنصراً محورياً في دراسة الشخصيات الأدبية والفنية، حيث يُمكن من تفسير التوترات والصراعات التي تميز السرد القصصي أو الفني بشكل عام، «ازداد شعوري بالخواء بعد يومين بلغتني رسالة سرية من غاستون ابن عمي أو ابن عمتي ما عدت أذكر قرابتي به في نص رحلتي الطويلة لكن في النص كما في الحقيقة كان الوحيد الذي بقيت أبادله الخطابات»²¹، يتساءل فيكتور عن درجة القرابة بينه وبين "غاستون"، ما يعكس انعدام اليقين وعدم القدرة على تحديد الروابط العائلية أو النفسية، حالة من الإغتراب...؟ هذا الصراع الداخلي يظهر في النص كجزء من رحلة طويلة تمزق هويته وتشعره بالإنزاع، ما يضيف بُعداً من التوتر النفسي المرتبط بالتشظي الداخلي والشعور باللااستقرار، كما أن العلاقة الوحيدة التي تظل قائمة هي تلك التي تتجسد في تبادل الخطابات مع غاستون، مما قد يشير إلى أنه رغم الضياع في جوانب حياته الأخرى، لا يزال هناك بعض الروابط التي تحاول منح معنى لهذا الفراغ.

النسق النفسي لا يُعبّر فقط عن تصورات الأفراد عن أنفسهم، بل يعكس أيضاً التفاعلات المعقدة التي تحدث بين الشخصيات والأطر الثقافية والسياسية التي تحيط بها، مما يتيح مساحة لفهم أعمق للإنسان وتجربته، وهو ما جسده زهرة كشاوي في منتها

5. خاتمة:

- تتعدد الأنساق الثقافية في رواية مدن المرجان بفضل تنوع الأبعاد التي تناولتها الكاتبة، حيث تمكنت من تصوير الأبعاد النفسية، السياسية، والاجتماعية بشكل معقد ومتداخل رغم اعتمادها على أحادية السرد، فاستطاعت الكاتبة تقديم صورة شاملة ومعقدة للواقع الذي تعيشه الشخصيات، مما يعكس قدرة الرواية على استيعاب وتناول مختلف الأنساق الثقافية في سياق سردي واحد.

- ظهور الأبعاد الاجتماعية، من خلال التفاعل بين الشخصيات والمجتمع المحيط بها، حيث تكشف الرواية عن العلاقات المعقدة بين الطبقات المختلفة والصراعات بين الجنسين، مما يعزز الطرح الثقافي ويجعل من الرواية أداة للكشف عن الأنساق الاجتماعية المضمرّة.
- من خلال الأبعاد النفسية، تظهر الكاتبة الصراع الداخلي للشخصية البطلة، التي تجد نفسها في مواجهة مع الهوية والذات في بيئة اجتماعية وسياسية مضطربة. هذا الصراع النفسي يتداخل مع الأبعاد السياسية التي تتجلى في الصراع الإستعماري والنزعة الاستعمارية، حيث تمثل الشخصيات في الرواية تجارب الحياة تحت الاحتلال ومعاناة التهميش والهويات المكسورة.
- استطاعت الكاتبة أن تنسج سردًا متعدد الأبعاد، يحمل بين طياته عدة أنساق ثقافية تتداخل مع واقع الشخصيات في سياق تاريخي وثقافي اجتماعي نفسي معقد، تنفرج مغلقاته بالنش في دواخله المعتمة.

6. الهوامش:

- 1 مجدي الخواجي: الشعرية النسوية المعاصرة التناسل والكثافة، النابغة للنشر والتوزيع، ط 1، مصر، 2022، ص 18.
- 2 إبراهيم أحمد ملحم، تحليل النص الأدبي: ثلاثة مداخل نقدية، ط 1، عالم الكتب الحديث، الأردن: 2016، ص 112.
- 3 المرجع نفسه، ص 219.
- 4 بتصرف: صلاح قلنوسة، تمارين في النقد الثقافي، ط 1، دار مبريت، القاهرة: 2022، ص 29.
- 5 بتصرف: صلاح قلنوسة، تمارين في النقد الثقافي، ط 1، دار مبريت، القاهرة: 2022، ص 29.
- 6 عبد الله الغدامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط 3، المركز الثقافي العربي، المغرب: 2005، ص 13.
- 7 المرجع نفسه، ص 79.
- 8 عبد الفتاح يوسف، القراءة النسقية: سلطة البنية والحداثة، ط 1، منشورات الاختلاف، الجزائر: 2003، ص 122.
- 9 عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، ط 1، عالم الكتب الحديث، عمان: 2009، ص 91-92.
- 10 صليحه تشييح، "صراع الهويات والذوات في رواية القلاع المتأكلة لمحمد ساري"، مجلة فصول، المجلد 25، العدد 99، 2017، ص 476.
- 11 زهرة كشاوي، مدن المرجان، ط 1، دار ميم للنشر، الجزائر: 2023، ص 351.
- 12 بلقاسم مليكة، "النسق: مفهومه وأقسامه"، مجلة التقاليد، العدد 13، الجزائر - ورقلة: 2017، ص 53.
- 13 هيلين جيلبرت، جوان تومكينز، الدراما ما بعد الكولونيالية: النظرية والممارسة، ترجمة: سامح فكري، مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون المصرية، القاهرة: 2000، ص 4.
- 14 عدلان رويدي، "محاضرات مقياس: نظرية القراءة، نقد عربي حديث ومعاصر"، كلية الآداب واللغات، جيجل: 2019-2020، ص 93.
- 15 المصدر نفسه، ص 351.
- 16 المصدر نفسه، ص 16-17.
- 17 المصدر نفسه، ص 106.
- 18 المصدر نفسه، ص 92-93.

¹⁹ المصدر نفسه، ص 354

²⁰ سعاد عبد الوهاب عبد الرحمن، النص الأدبي: التشكيل والتأويل، دار جرير، ط1، عمان - الأردن: 2011، ص. 184.

²¹ مصدر سابق، زهرة كشاوي، مدن المرجان، ص 356.

7. قائمة المصادر والمراجع :

قائمة المصادر:

1- زهرة كشاوي، مدن المرجان، ط1، الجزائر، دار ميم للنشر، 2023.

قائمة المراجع:

1- إبراهيم أحمد ملحم، تحليل النص الأدبي: ثلاثة مداخل نقدية، ط1، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2016.

2- الحذاري سعد، "النقد الثقافي حدوده ومفاهيمه"، مجلة اللغة العربية، المجلد 23، العدد 4، 2021.

3- بلقاسم مليكة، "النسق: مفهومه وأقسامه"، مجلة التقاليد، العدد 13، الجزائر - ورقلة، 2017.

4- هيلين جيلبرت، جوان تومكينز، الدراما ما بعد الكولونيالية: النظرية والممارسة، تر: سامح فكري، القاهرة،

أكاديمية الفنون المصرية، مركز اللغات والترجمة، 2000.

⁵ مجدي الخواجي، الشعرية النسوية المعاصرة: التناسل والكثافة، ط1، مصر، النابغة للنشر والتوزيع، 2022.

⁶ سعاد عبد الوهاب عبد الرحمن، النص الأدبي: التشكيل والتأويل، دار جرير، ط1، عمان - الأردن، 2011.

7- صليحة تشيخ، "صراع الهويات والذوات في رواية القلاع المتأكله لمحمد ساري"، مجلة فصول، المجلد 25،

العدد 99، 2017.

8- صلاح قلنوسة، تمارين في النقد الثقافي، ط1، القاهرة، دار مبريت، 2022.

9- عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، ط1، عمان، عالم الكتب الحديث، 2009.

10- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المغرب، المركز الثقافي العربي،

2005.

11- عدلان رويدي، "محاضرات مقياس: نظرية القراءة، نقد عربي حديث ومعاصر"، كلية الآداب واللغات،

جامعة جيجل، 2019-2020

12- عبد الفتاح يوسف، القراءة النسقية: سلطة البنية والحداثة، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2003.